المغاربة والبحر خلال العصور القديمة

د.مصطفى غطيس
أستاذ التاريخ القديم
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة عبد الملك السعدي – تطوان
المملكة المغربية
mghottes@hotmail.com

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:
مصطفى غطيس ، المغاربة والبحر خلال العصور القديمة.- دورية كان التاريخية.- العدد الثاني عشر ؛ يونيو ٢٠١١. ص ٧٦ – ٨٤.
(www.historicalkan.co.nr)

مقدمة

كتب سعيد حورانيه في مقدمته لقصة حنا مينه "الشراع والعاصفة"[١] ما نصه: "البلاد العربية بمجملها واقعة على أطراف البحار ، ولكننا ، منذ ألف ليلة وليلة ، لم يعرف البحر سبيله إلى أدبنا! لماذا؟ (...)". وأبدأ بحثي هذا بتساؤل أنا أقل الباحثين قدرة للإجابة عليه: لماذا لم يعرف البحر سبيله إلى تاريخنا؟

فإلى غاية انعقاد ندوتي "البحر في تاريخ المغرب"[٢]، و"الماء في تاريخ المغرب"[٣]، لم يصدر – حسب علمي – بحث سبق وأن تناول بدقة موضوع البحر في تاريخ المغرب القديم ، كما يتجلى ذلك من خلال مسارد رسالة دكتوراه السلك الثالث القيمة التي حضرها وناقشها حميد عرايشي في جامعة فرانش كونطي (Franche-Comté) بفرنسا خلال السنة الجامعية ١٩٩٢-١٩٩٣ ، تحت عنوان:

Le Maroc antique dans l'historiographie contemporaine (1912-1985) ;Analyse bibliographique ;

حيث لا أثر لمادة بحر « *mer* » أو محيط « *océan* » في فهرس المواضيع index des thèmes .وبعد عشر سنوات ، ناقش الباحث نفسه أطروحة لنيل دكتوراه الدولة حول موضوع "المغرب القديم في الإسطوغرافيا الحديثة والمعاصرة" في كلية الآداب بوجدة (٢٠٠٢ - ٢٠٠٣) ، ولم ترد في " كشافه الموضوعاتي" مادة "بحر" ولا "محيط". فلماذا لم يوجه الباحثون المغاربة عنايتهم بما فيه الكفاية للبحر وعلاقة المغاربة به. فهل هي ، حسب ابن خلدون ، "بداوة العرب" ، أو"كثرة العوائد البدوية بالمغرب" التي جعلت البحر مهمشا إلى حد كبير في اهتمامات المغاربة ومؤرخيهم؟ أم أن العائق الأساسي يكمن في ندرة المادة العلمية المتوفرة حول موضوع "المغاربة والبحر" في مصادر تاريخ المغرب التي "أدارت ظهرها للبحر" على حد تعبير بعضهم؟

فحسب الحسين بولقطيب[٤] ، «لقد ظل البحر دوما حاضرا في مجمل التطور الحضاري الذي عرفته المجتمعات الإنسانية وضمنها المجتمع المغربي ، ولم يقتصر دور البحر على المساهمة في النشاط الاقتصادي بل كانت له كذلك أدوار أساسية أخرى نذكر منها مساهمته في نقل التيارات الحضارية والثقافية من بلد إلى آخر ومن قارة إلى أخرى. على أنه من الإنصاف القول إن محاولة كتابة التاريخ البحري المغربي تصطدم بالعديد من العراقيل والصعوبات لعل أبرزها غياب "أرشيف بحري" وطني يضم المؤلفات والوثائق ذات العلاقة بالنشاط البحري المغربي. فالنصوص التي تعالج النشاط الملاحي المغربي توجد موزعة بين أرشيفات العديد من الدول الأوروبية والإسلامية والإفريقية. إن هذا التشتت هو الذي يجعلنا نتفق مع ما ذهبت إليه الباحثة حليمة فرحات حين أكدت بأن ما نجهله عن علاقة المغاربة بالبحر يفوق بكثير ما نعرفه عنها»[٥].

والواقع أن الباحثين الأجانب أكدوا بدورهم على شح المعلومات المتعلقة بالبحر والملاحة في الشواطئ المغربية واعتبروه أكبر عائق أمام الباحث في هذا الموضوع. غير أن هذه المعلومات بالرغم من ندرتها فهي متنوعة ، ولم تستغل في اعتقادي كما ينبغي لها أن تستغل. فلو أخذنا ميدان الميثولوجيا الإغريقية على سبيل المثال ، لرأينا أن المغرب كان مسرحا لمجموعة هامة من الأحداث الأسطورية المرتبطة بالبحر ، حيث تتداخل الآلهة وأنصاف الآلهة والأبطال والوحوش... في

مغامرات وصرا عات وأسفار كانت نتائجها حاسمة في تشكيل اسم المحيط الذي يطل عليه المغرب غربًا، واسم أقدم مدينة مغربية (Tinga التي أسسها أنطي)، واسم أحد عمودي المضيق في العدوة المغربية (أبيلا)؛ ناهيك عن جنة الهيسبريد ومنازل الغورغون وجزيرة كاليبسو ومقام أوليس فيها... وكان هيرودوت قد زعم أن الليبيين (سكان شمال إفريقيا في العصر القديم) هم الذين عرفوا الإغريق ببوصيدون إله البحر. ففي الأصل، كان الليبيون وحدهم يعرفون إسم بوصيدون، الإله الذي خصوه بالعبادة دائمًا[٦].

وفي العصر الروماني عبد أهالي شمال إفريقيا نيبتون، ليس في المناطق الساحلية فحسب، حيث عبدوه كإله البحر، بل حتى داخل البلاد، وبصفة خاصة في العيون التي اعتبر نيبتون سيدها[٧]. ولقد أفاض القدامى في وصف نپتون (Neptune)، وطابق الرومان بينه وبين پوصيدون إله البحر الإغريقي الذي كان يعد بين آلهة الإغريق الإثنا عشر (les Olympiens). ومثله الإغريق مسلحا بشوكة ثلاثية، وهو سلاح صيادي التن، وممتطيا عربة تجرها حيوانات مسوخ، نصفها خيول ونصفها الآخر ثعابين. وكانت تحيط بهذه العربة أسماك ودلافين وكائنات بحرية مختلفة الأشكال وجان، الخ[٨]. واعتقد القدامى أن لهذا الإله القدرة على إغراق المسافرين أو إنجادهم في البحر، وعلى جعل البحر هادئًا ساكنا... ونورد فيما يلي فقرات من "حوارات الآلهة البحرية"؛ التي تصورها لوسيان والتي تعكس نظرة القدامى لهذا الإله:

«- السيكلوپ: (...) هكذا خدعني الآثم [أوليس] بذلك الاسم [لا أحد]؛ ولكن الذي يؤلمني أكثر هو أنه عيرني بآفتي قائلا: أبوك نيپتون بنفسه، لن يقدر على إبرائك.

- نيپتون: دم ناعم البال يا بني، سأنتقم لك منه، وسيعلم أني إن كنت عاجزا عن إبراء العميان، فإني قادر على إنقاذ أو هلاك من يسافرون في البحر (...)[٩].

« - پانوپ (Panope): هل رأيت يا غالين (Galène) ماذا فعلت (la Discorde) في طيساليا بالأمس خلال تناول وجبة الطعام (...)؟

- غالين: لم أكن من بين المدعوين يا پانوپ، فلقد أمرني نيپتون أن أبقي البحر هادئا وساكنا(...)»[١٠].

ولقد عثر في "وليلي" على تمثال إله نهري تم اكتشافه في الدار المحتوية علي فسيفساء فينوس. كما عثر في نفس المدينة على تمثال يمثل نيپتون، وهو نسخة من تمثال پوصيدون إيسطميوس (Poséidon Isthmios)، وكلاهما موجود في متحف الرباط الأثري[١١]. وتمثل مجموعة من الحمامات العمومية والأحواض التي عثر عليها في بعض المواضع الأثرية في المغرب عالم البحر، كرسوم للأسماك والتريتون (tritons) (آلهة الموج)، كما هو الشأن بالنسبة لفسيفساء تريتون في بناصا، أو حوريات تمتطي وحوشا بحرية أو تحيط بجسد الإله المحيط... أو صياد رافع لمذراة ثلاثية وسط طحالب وأسماك وطيور بحرية...[١٢]

فالبحر في اعتقادي حاضر حضورًا قويًا في الجانب الميثولوجي من تاريخ المغرب القديم، وتأثير الميثولوجيا الإغريقية بين في بعض الأساطير المغربية الحديثة، مثل حكاية "العفريت بوخلخال" (هرقل؟) وحفره مضيق العمودين، أو حكاية " المغرورين" ومغامرتهم البحرية في ساحل المغرب الأطلنطي، والتي نجد أصلها مثلا في الكتاب الخامس من مؤلف ديودور الصقلي... وحكاية "الأخطبوط العملاق" التي رواها برونو[١٣] (L.Brunot) عن بحارة سلا والرباط الذين زعموا أن أخطبوطا عملاقا كان قد قبض بأحد أرجله على شخص كان جالسا على ظهر سفينة وغاص به إلى أعماق البحر. وهي حكاية يمكن اعتبارها صدى لما ذكره بلينيوس الشيخ[١٤] في تاريخه الطبيعي، وأبو حامد الأندلسي في "تحفة الألباب"[١٥].

وبالرغم من شح المعلومات المتعلقة بالبحر والملاحة في الشواطئ المغربية في المراجع الأجنبية والمصادر العربية[١٦]، فإن ما وصلنا من أوصاف وملاحظات، على ندرتها، تثبت عبادة الآلهة البحرية الفينيقية - البونية الأصل في المغرب القديم[١٧]. وسلوك المغربي وتصوره للبحر، إلى غاية العصر الحديث، لا يختلف في جوهره عن سلوك وتصور الإغريقي القديم لعالم البحر وكائناته، وذلك في مجالات شتى نذكر من بينها على سبيل المثال: أدب ركوب البحر والتقرب إلى آلهته، ومخلوقات البحر العجيبة وإغاثة السفن والعبادات (العنصرة نموذجًا).

والبحر «خلق عظيم، يركبه خلق صغير، دود على عود»[١٨]، لا أمان له[١٩]، وركوبه يعني ركوب الأهوال[٢٠]. وكان له إله يسيطر عليه في اعتقاد الفنيقيين والإغريق والرومان والمغاربة القدامى الذين عبدوا أو تقربوا لآلهة البحر بأشكال مختلفة، بهدف اتقاء شر البحر الذي تصوره القدامى كائنا جبارا ثم خصوه بالعبادة. ويتجلى هذا "الجبروت" من خلال بعض المصطلحات والتعابير التي استعملها المغاربة في البحر أو في بعض المناطق الساحلية. فلقد ورد في "الترجمانة الكبرى" لأبي القاسم الزياني، وصفه لرحلته البحرية سنة ١٢٠٠هـ من الصويرة إلى اصطنبول، وكيف هاج البحر وأوشك الزياني ومن معه على الهلاك؛ كما وصف لنا موقف "الباشدور" العثماني إسماعيل أفندي العدائي من المغرب وسلطانه، وتهديد الزياني للسفير التركي بذبحه تقربا للبحر!

«(...) ولما دخلنا جزر بر الترك استأنس هذا الباشدور، وسرح لسانه بالشتم في دولة المغرب وأهله وهو يسمعني ذلك، فواعظته المرة بعد المرة ونهيته فلم يرجع عن فعله واستمر على ذلك إلى أن ألجأنا البحر وأهواله إلى مرسى الشيشمة وأشرفنا على المهالك وايسنا من الحياة والمركب مشرف على التلف بكلنا، وهو يسب أمير المؤمنين ويدعو عليه، فقمت إليه وأخذت بلحيته وقبضه خدامي وهو يصيح، فقلت والله يا ملعون لأتقرب بذبحك قبل الموت، وجاء الرئيس وأعوانه فرغبوني فيه وسرحوه من يدي، وخلصنا من تلك الورطة ودخلنا المرسة وأرسينا بها (...)»[٢١].

كما يتمثل جبروت البحر من خلال تمثيل القدامى له في بعض أعمالهم الفنية التي عكست عتو هذا "السلطان" وشدته وشراسته. كما يظهر ذلك جليًا في "ساترة القرميد" التي عثر عليها في ميدان ليكسوس[٢٢]، أو في الفسيفساء التي تمثل الإله المحيط في المدينة نفسها[٢٣]. وكان المنتحل اسم سكولاكس[٢٤] وحنون[٢٥] قد أشارا في رحلتيهما إلى المعبد الذي أقامه القدامى فوق رأس صولوييس (رأس بدوزة، شمال آسفي) وكرسوه لبوصيدون في منطقة "جد مقدسة" حسب سكولاكس؛ وهو تقديس ما زالت بعض آثاره ظاهرة في قباب ومزارات "رجال السواحل" في هذه المنطقة[٢٦].

ويرى كركبينو[٢٧] أنه إذا كانت آثار معبد بوصيدون قد زالت تماما، فإن بعض آثار الطقوس التي ربما كان الأهالي يقومون بها في ذلك العصر تقربًا من الإله الذي طوع الفرس والبحر لم تنمح كليًا، كما افترض ذلك مارسي[٢٨] (Marcy). فلقد أشار هذا الأخير إلى ما كان

يقوم به سكان هذه الناحية من بعض الأمازيغ الذين استمروا بعد اعتناقهم للإسلام في ممارسة بعض العادات الوثنية الضاربة جذورها في التاريخ، والتي كانت تقضي بقيادة أحجار خيلهم العقائم خلال بعض ليالي السنة إلى رأس بدوزة، آملين أن تخصبها فحول كريمة وعجيبة تطلع بغتة من أعماق البحر. وزعم أهالي الرباط ونواحيها أن هناك خيولا بحرية تخرج من البحر ليلا لتسفد الحجور، وأحدها له رأسان، وأن الأمهار التي تولد بعد ذلك تكون من أجمل الجياد وأجودها، وتعرف بـ«خيل الريح». ويروي سكان شواطئ دكالة أسطورة أوردها دوطي (E.Doutté) في كتابه "مراكش"[٢٩]، مفادها أن جوادا بحريا "العود البحري" يخرج من البحر ليلة واحدة في السنة ليسفد حجور البخاتيين (فخذ من عبدة)، وهو ما يفسر حسب هؤلاء وجود أفراس عتاق في قبيلتهم لا نظير لها. ويسمي القزويني هذه الأمهار في عجائب المخلوقات[٣٠] «أفراس الماء».

ومعلوم أن الصيادين في شواطئ المغرب الأطلنطية كانوا إلى غاية القرن العشرين يضعون أنفسهم تحت حماية أولياء الساحل ويتقربون إليهم بالأضاحي أو بجزء من صيدهم، بغية إرضائهم. وتجلت بعض مظاهر تقديس البحر وإرضاء آلهته أو رجاله "أهل الإغاثة" في المغرب، في بعض المواسم الوثنية الأصل كالعنصرة التي تعتبر من التقاليد القديمة جدا في شمال إفريقيا حيث كانت تقام في الأصل، على الأرجح، على شرف إله البحر نپتون[٣١].

وتأثير البحر وعالم آلهته بارز في مجموعة من المدن المغربية القديمة، حيث مثل نبتون وآلهة الموج وحوريات تمتطي وحوشًا بحرية أو تحيط بجسد الإله المحيط، ومخلوقات البحر العجيبة الأخرى التي احتفظت ذاكرة المغاربة الجماعية ببعض أساطيرها كالأخطبوط العملاق، والقرع بن نمري (*l'homo marinus*)، وهو حيوان أسطوري نصفه آدمي والنصف الآخر نصف السمكة الأسفل- كعرائس البحر في الميثولوجيا الإغريقية التي كانت تجذب بأنغامها التي لا تقاوم البحارة إلى الحشاف الشاطئية التي تتحطم عليها سفنهم- يحكى أنه يخرج إلى شاطئ البحر، وينادي على الناس بأسمائهم، ويطلب منهم الاقتراب منه؛ وكلما لبى نداءه أحد ما إلا وقبض عليه وغاص به إلى قاع البحر[٣٢]، والسمك الصغير الذي نزل من السماء[٣٣] والثعبان الطائر بذنب سمك[٣٤]. وتوارثت أجيال من المغاربة في بعض المناطق الساحلية خرافات تتعلق بالتكهن بالمستقبل بواسطة أصداف البحر، بل منهم من زعم أنه يكلم المحار تكليمًا، ومنهم من قدس بعض الأسماك وأطعمها وقرطها وحرس مزاراتها إلى اليوم. وزعم القزويني[٣٥] (هيردوت القرون الوسطى) في "كتاب آثار البلاد" أن الناس كانوا يتبركون في نواحي سبتة بنسل سمكة موسى التي عادت إلى البحر بعد شيها!

فلقد كان البحر ومازال في اعتقاد بعض المغاربة مجالاً مقدسًا طاهرًا لا يجوز تنجيسه. وخصت آلهته بالعبادة دائمًا في شواطئ شمال إفريقيا حسب هيردوت[٣٦]، وذلك قبل أن يتعرف الإغريق على بوصيدون الذي كانت له القدرة المطلقة على البحر. وكان البحر حاضرًا أيضًا بشكل هام في حياة المغربي خلال عصور ما قبل التاريخ بالنظر إلى عدد المواضع الساحلية ما قبل التاريخية التي تم اكتشافها إلى اليوم، والتي نرى أن قاطنيها استهلكوا الأسماك وثمار البحر واستعملوا أصداف البحر ربما للتزيين أو لمآرب أخرى[٣٧]؟ فلقد أثبت علم الآثار ارتباط أولى المجموعات البشرية التي استوطنت شواطئ العدوة المغربية من مضيق جبل طارق بالبحر منذ العصر الحجري القديم. وتؤكد ذلك نتائج الحفريات التي قام بها فريق من الباحثين الإسبان في مغارة بنثو (Abrigo de Benzu) المطلة على خليج الباييرا (Bahia de la Ballenera) بالقرب من سبتة، ابتداء من سنة ٢٠٠١[٣٨].

وحسب نتائج هذه الحفريات، ترجع أقدم آثار الإنسان في هذا الموضع إلى أواخر البلايسطوسين الأوسط (حوالي ١٤٠.٠٠٠ سنة)، وتستمر إلى غاية ٧٥.٠٠٠ سنة تقريبا[٣٩]. وتثبت هذه الآثار استهلاك المجموعة البشرية التي سكنت هذه المنطقة عدة أصناف من الرخويات وأصداف البحر بشكل مستمر، وعلى مدى الفترة الطويلة التي استغرقها وجود الإنسان في هذه المغارة[٤٠]. وخلال العصر الحجري الحديث، استمر استغلال منتجات البحر الذي يبدو من خلال البقايا الأثرية كثابتة في نشاط إنسان هذه المنطقة منذ استقراره فيها. وتثبت الآثار التي خلفها إنسان العصر المذكور (الألف السادس ق. م.) في المغارة، استهلاك عدة أصناف من ثمار البحر تتمثل في:

Patella sp Siphonaria; Mytilidae; Ostraea; Columbella rustica[41].

وهو ما يعكس أهمية المنتجات البحرية في نظام التغذية اليومي لإنسان هذا العصر.

ولاحظ الباحثون الذين نقبوا في هذا الموضع أن استهلاك الإنسان لثمار البحر والأسماك فيما بعد، ارتفع وتنوع بشكل مطرد على امتداد الدهر الواقع بين العصر الحجري القديم وعصر البرونز[٤٢]. وفي هذه المغارات ما قبل التاريخية تم العثور على أقدم البقايا الأثرية التي استوردها إنسان العصر الحجري الحديث من إيبريا والمتمثلة في الأواني الكارديالية، ثم الناقوسية الشكل. ومنذ العصر الحجري القديم، أحس الإنسان في المغرب، شأنه شأن بني جنسه في أطراف العالم الأخرى برغبة اكتشاف الجزر القريبة من قارته، فأبحر في اتجاهها في قوارب بدائية، وارتاد الجزر الجعفرية[٤٣] وجزيرة موغادور وأرخبيل الكاناري[٤٤].

وبالرغم من خطورة الملاحة في مياه المضيق[٤٥]، بسبب العوامل الجغرافية المميزة لهذا المجال من رياح[٤٦] وتيارات بحرية وضباب وشواطئ صخرية، فإن الإنسان اقتحم هذا المجال البحري منذ زمن سحيق. وهناك تباين في آراء الباحثين المختصين الذين انكبوا على دراسة هذا الموضوع، بين من قال بأن عمليات العبور الأولية تمت خلال العصر الحجري القديم الأسفل، بناء على التشابه الحاصل بين الأدوات الحجرية المميزة للحقبة الأشولية الشمال إفريقية، ونظيراتها الإيبيرية التي صقلت خلال العصر الأشولي الأوسط والأعلى؛ ومن قال بأنها تمت قبل ذلك، خلال الإنجلاد الريسي حيث كانت المسافة الفاصلة بين العدوتين أصغر مما هي عليه الآن بفعل انحسار بحر المجاز[٤٧].

وإذا كان من الصعب ترجيح هذا الرأي أو ذاك، فمن المؤكد أن عبور المضيق تم قبل العصر الحجري الحديث. وخلال هذا العصر الأخير تأكدت العلاقات البحرية المغربية الإيبيرية من خلال انتشار الخزفيات الكارديالية في العدوتين؛ ثم تقوت هذه العلاقات البحرية وزادت المبادلات بين المغرب وإيبريا خلال العصر الحجري النحاسي وعصر البرونز[٤٨]. وتؤكد النصوص الإغريقية واللاتينية بدورها قدم العلاقات البحرية المغربية الإيبرية التي ترجع إلى أساطير الإغريق الأولين، من خلال الميثولوجيا وأحد أبطالها الأساسيين الذي سمي

المضيق باسمه: "عمودا هرقل"؛ المعلمان الرئيسيان في عمليات الإبحار وتحديد المسافات والمجاري، وكحد بين البحر المتوسط والبحر الخارجي.

وجلي أن سواحل المغرب ومياه بحريه مازالت تحتفظ بكنوز أثرية. فعصور ما قبل التاريخ في شواطئ المغرب المتوسطي- باستثناء سبتة ومليلية- ما زالت شبه مجهولة لقلة التنقيب الأثري في ساحل الريف. وتكفي زيارة المتحف الأثري والمخازن التابعة له في مدينة سبتة للوقوف على أهمية هذه "الكنوز" التي تشمل مئات القطع الأثرية، وعشرات الأمفورات، وعشرات المخاطيف التي استخرجها الأثريون الإسبان من أعماق مياه البحر المحيط بالمدينة، بتعاون مع النادي البحري التابع لسبتة. وكيف يعقل أن تكون مياه سبتة غنية بالآثار البحرية إلى هذا الحد، ويظل جون طنجة مثلاً مجالاً ممتنعًا على التنقيب الأثري تحت البحر، مع العلم أن أعماق الجون المذكور تحتضن اليوم هياكل سفن قديمة بأوساقها، أشار بونسيك[٤٩] (M.Ponsich) إلى بعضها. فميدان علم الآثار البحرية ما زال بدوره بكرًا ينتظر، عسى أن يخضخض مياهه باحث جسور.

وإذا أخذنا بعين الاعتبار شح المعلومات المتعلقة بالمغاربة القدامى والبحر في النصوص القديمة، وانعدام التنقيب تحت البحر في الشواطئ المغربية، فهل يحق لنا القول أن المغاربة فعلاً ليسوا ببحارة، ويخشون البحر ويديرون له أظهرهم، وأن النشاط البحري ظل دائما ميدان الأجانب حسب زعم البعض؟ وأن فقر اللهجات الأمازيغية بخصوص المصطلحات المتعلقة بعالم البحر والمصطلحات الجغرافية الخاصة بالتضاريس الساحلية يعكس نفور المغاربة من البحر، بربرًا كانوا أو عربًا؟ وأن العرب ركزوا على تصوير البحر وكأنه مصدرًا للعجائب الخارقة ولأخطار لا تحصى، في حين أفاض الإغريق والرومان في وصف جماله ومحاسنه سواء في أعمالهم الأدبية أو في لغة تخاطبهم اليومي حسب الباحثين الأجانب؟

فلقد أجمع معظم الباحثين الأجانب على عدم اهتمام "الليبيين" القدامى بالملاحة البحرية بالرغم من استقبالهم واحتكاكهم بشعوب بحرية مختلفة منذ غابر الأزمنة. وهكذا لاحظ (A.Berthelot)[٥٠] أن النصوص القديمة لا تشير لا إلى بحارة ليبيين ولا إلى أسطول ليبي. وزعم سوفيل[٥١] (G.Souville) أن سكان بلاد المغرب لم يحتفظوا بعادات وأعراف تتعلق بالبحر، ولم يستهوهم البحر إلا قليلاً، ولم يمارسوا الصيد إلا عرضًا. ووصف برنار (A.Bernard)[٥٢] المغاربة بأنهم « *essentiellement terriens* ». وكان هذا الباحث[٥٣] قد كتب سنة ١٩٠٥ما نصه: "كان البربر دائمًا بحارة غير أكفاء، وكأن البحر غريبا عن بيئتهم؛ فهم يخشونه ولا يعرفون في معظمهم كيف يصنعون سفينة تجارية ولا كيف يقودونها. وطرق صيدهم بدائية وبعيدة عن الإتقان".

وأكد سيليريي[٥٤] J.Celerier على عدم إقبال البربر في المغرب على الملاحة البحرية، واقتصارهم على تلقي التأثيرات الأجنبية التي أتت من المحيط. ورأى لاوسط[٥٥] (E.Laoust) في دراسته حول "الصيادين البربر في سوس" أن: "فقر المصطلحات البحرية في اللهجات الأمازيغية قد يفسر بعدم اهتمام الأمازيغ بالبحر والملاحة البحرية". وكرر برونو[٥٦] (L.Brunot) نفس الشيء سنة ١٩١٨ في كتابه "البحر في التقاليد والصناعات الأهلية في الرباط وسلا"، عندما كتب في مقدمته أن "المسلمين سكان الرباط وسلا لا يهتمون بالبحر والملاحة إلا قليلاً... وأن طبيعة البربر والعرب جعلتهم لا يميلون إلى البحر إلا قليلاً... ومن جهة أخرى فإن الأهالي بحارة غير أكفاء، يجهلون علم الفلك، فهم لا يعرفون إلا بعض النجوم، وحتى هذه النجوم فإنهم لم يلاحظوا حركاتها..."[٥٧]. وأشار بعد ذلك في ص.٣١ إلى فقر لغة أهل الرباط وسلا بخصوص المصطلحات البحرية، واستعمالهم كلمات أجنبية للتعبير عن بعض الظواهر المرتبطة بالبحر كالمريا (marea)، أي المد والجزر.

«وذهب جون ديبوا[٥٨] J.Despois، حسب الحسين بولقطيب[٥٩]، إلى أن سكان المغرب، رغم أهمية المسطحات المائية المحيطة بهم، لم يساهموا في النشاط البحري إلا بشكل محدود ومحلي أحيانًا، وبتحفيز من الأجانب في أحيان كثيرة. ورغم ما هو معروف عن فرنان بروديل من صرامة علمية وتأني في إصدار الأحكام، فإنه لم يفلت من السقوط في فخ الإيديولوجيا حينما صرح بأن الطبخ الإسلامي لا مكان فيه لمنتوجات البحر[٦٠]، وهي إشارة ضمنية إلى عدم استغلال العرب والمسلمين للبحر.

ومن الغريب أن نجد هذا التصور يترسخ حتى لدى بعض أفراد النخبة السياسية والعسكرية المغربية. فابن عائشة "القرصان" السلاوي المشهور، يعيد إنتاج نفس خطاب الأوروبيين حول عدم دراية المغاربة بشؤون البحر. ففي خطاب له موجه لسكرتير فرنسا بونشرتان Ponchartain يقول: "لو كان المغاربة غزاة بحريين لما تركوا أي قرصان إنجليزي يمر عبر المضيق، لكن العرب لا يعرفون غير ظهور جيادهم[٦١]". وفي هذا الصدد، أنشد الشاعر الصقلي مصعب أبو العرب[٦٢] (القرن ٥ هـ/ ١١ م):

البحر للروم لاتجري السفين به *** إلا على غرر والبر للعرب

وذكر ابن خلدون[٦٣] في مقدمته بعض المصطلحات البحرية التي استعملها سكان شمال إفريقيا منقولة من "لغة الإفرنجة" ك "الكنباص"، و"الملند". وقد يفسر ذلك، حسب ابن خلدون[٦٤]، بـ «كثرة العوائد البدوية بالمغرب" وبـ "بداوة العرب" الذين "لم يكونوا أول الأمر مهرة في ثقافته وركوبه، والروم والإفرنجة لممارستهم أحواله ومرباهم في التقلب على أعواده مرنوا عليه وأحكموا الدراية بثقافته». وحسب عز الدين عمر أحمد موسى[٦٥]، لم تهتم الدول المرابطية والموحدية والمرينية بأمر الأسطول في بداية أمرها «بسبب حياتها البدوية أو الجبلية الأولى بالإضافة إلى أن حروبها الأولى كانت برية، وما شواطئ المغرب إلا أطراف نزاعها الأول؛(...)». ودرس الحسين المجاهد[٦٦] الأدب الشفهي السوسي من خلال الأحاجي والأمثال والشعر الغنائي والحكايات والأساطير والقصص المتعلق بالقديسين، وبحث في هذا التراث عن آثار عالم البحر، وعكست نتائج بحثه شبه قطيعة بين أهالي سوس والبحر. ومعلوم أن الأدب الشفهي يعكس عامة الواقع الاجتماعي والاقتصادي لمجتمع ما، فالأوديسا مثلاً تتميز عن الإلياذة بأسلوبها الذي يعكس تأثر صاحبها أو أصحابها ببيئة البحر وعالمه، بينما نجد هذا "العالم" غائبًا بشكل شبه تام في التراث الأدبي الأمازيغي. وقد توصل المجاهد في بحثه إلى النتائج التالية:

١- من بين ٧٨٣ أحجية تتعلق بعالم البشر، والحيوان، والنبات، والحياة اليومية، والحياة الاجتماعية، والعالم الأبدي، ثلاث أحجيات فقط تتعلق بالبحر، ويبدو أنها ابتكرت حديثًا على الأرجح.

٢- في كتاب باسي *H.Basset, Essai sur la littérature des (Berbères)* الصادر سنة ١٩٢٠ ، مواضيع الفنون الأدبية التي درسها هذا الباحث في كتابه لا تذكر البتة أي إشارة إلى عالم البحر.

٣- في قصائد الأمازيغ (الشلوح) التي جمعتها P.Galaud – Pèrnet سنة ١٩٧٥ ، لا توجد أية قصيدة تتعلق بالبحر.

٤- جمع المستاوي وعلق في ثلاث دراسات متتالية صدرت له سنتي ١٩٨٥- ١٩٨٦ على ما ينيف عن أربعمائة (٤٠٠) أمثال (لهجة تشلحيت) ، دون العثور ولو على مثل واحد يتعلق بعالم البحر.

٥- في كتابه (*Mots et choses berbères*) الصادر سنة ١٩٢٠ ، اهتم لاوست (Laoust) بكل أوجه حياة البربر وثقافتهم دون أية إشارة إلى النشاط البحري.

٦- أشهر النصوص المتعلقة بحياة القديسين لا تتطرق إلى عالم البحر.

٧- نصوص القانون العرفي الأمازيغي التي نتوفر عليها لا تتعرض البتة للمسائل المتعلقة بالصيد ، بينما نجدها تعالج بدقة في أغلب الحالات النوازل الأخرى المرتبطة بحياة البربر الجماعية.

وكان دوكاسطر[٦٧] De Castries قد رد على قول بعض الدارسين الذين لاحظوا الأهمية القصوى التي اكتسبتها القرصنة في سواحل شمال إفريقيا ، وذهبوا إلى القول بأن لشعوب بلاد المغرب مؤهلات واستعدادا للقيام بكل الأنشطة المتعلقة بالملاحة البحرية ؛ وذكر بعضهم أن النورمنديين والبيزنطيين هم الذين علموا المغاربة فنون الملاحة. ودحض دوكاسطر (De Castries) هذا الرأي وزعم أن لا استعداد للمغاربة للقيام بالأعمال المتعلقة بالبحر والملاحة بربرًا كانوا أو عربًا ، وأن معظم الملاحين وقادة السفن كانوا مراقًا. وتساءل أحمد الغرباوي[٦٨] في أطروحته لماذا لم يصبح سكان شبه الجزيرة الطنجية عبر القرون بحارة بالرغم من توفر أراضيهم على ثلاث واجهات بحرية ؟

وأشار بعض الباحثين المغاربة الذين درسوا علاقة المغاربة بالبحر خلال القرن السادس عشر إلى « ندرة المادة العلمية المتوفرة حول هذا الموضوع ، وخاصةً بمصادرنا التقليدية. فقد تعودت هذه الأخيرة إدارة ظهرها للبحر ، وإذا التفتت خلفها ، فإنها لن ترى البحر إلا بعيون الدولة ، ومن خلالها ،(...)[٦٩] ». وأكد محمد المهناوي «أن البحر ظل مهمشًا ضمن اهتمامات المجتمع المغربي ، وكانت علاقة المغاربة بالبحر محدودة حتى في زمن توفر السلطة المركزية على أسطول بحري». وانعكس هذا التهميش على النظام الغذائي المغربي ، بحيث ظلت المنتوجات البحرية قليلة الأهمية ضمن المطبخ المغربي خلال القرن السادس عشر حيث كان الصيد بالأنهار وخاصة قرب المصبات أكثر أهمية من البحر[٧٠]. و أكد أحمد بوشرب[٧١] في ندوة "المغرب والأطلنطكي" على محدودية استعمال المغاربة للبحر سواءً في الميدان العسكري أو التجاري ، فضلاً عن الغذائي ، ولاحظ أن هذه الوضعية كانت تتفاقم بشكل تصاعدي بعد العصر الموحدي.

وكان الباحث الفرنسي بيكار[٧٢] (Ch. Picard) قد درس في كتابه " المحيط الأطلنطكي" اقتصاد نكور وقال أن هذا الاقتصاد كان يقوم على المبادلات التجارية مع الأندلس وباقي المرافئ في الغرب الإسلامي ، وكذا على نشاط القرصنة عبر بادس والمزمة خاصة. وهذا النشاط البحري الذي ابتدأ حوالي منتصف القرن الثامن ، وتقوى بصفة مطردة بعد ذلك ، يوحي حسب بيكار (Ch.Picard) ، بتعاطي سكان الريف في الماضي لأنشطة ترتبط بالبحر. فهل تعني ممارسة سكان الريف لهذه الأنشطة الملاحية في الماضي أن الموريطانيين والنوميديين كانت لهم بحرية ؟

فلقد ذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن ملوك موريطانيا ونوميديا كانوا يملكون بحرية ، غير أنها لم تكن ذات أهمية تذكر ، والأدلة التاريخية بخصوصها نادرة وغامضة. ويمكن أن تكون هذه البحرية قد قامت بمحاربة القرصنة إن لم تكن قد تعاطتها في بعض الفترات ، كما حصل في عهد مسنيسا[٧٣]. ولقد أورد غزيل[٧٤] في المجلد الخامس من تاريخه النصوص التي تطرقت إلى هذه البحرية. ويتعلق الأمر بنص لشيشرون ذكر فيه قائدا لأسطول مسنيسا (*praefectus regius*) ونص لسطرابون تحدث فيه عن أودكس السيزيكي (Eudoxe de Cyzique) الذي طلب من ملك موريطانيا في بداية القرن I ق.م. أن يزوده بسفن قصد تنظيم رحلة على امتداد الشواطئ المغربية الأطلنطية ، وهو ما لا يمكن اعتباره ، حسب غزيل ، دليلا على امتلاك الملك الموريطاني لأسطول حربي. وذكر غزيل[٧٥] أيضًا قطعة نقدية سكت في عهد الملك بوغود المعاصر ليوليوس قيصر وقد مثل على وجهها جؤجؤ قادس (galère). وفي سنة ٤٦ ق.م. قام قائد حرب من أنصار بومبيوس (Pompée) بتزويد سفنه بجدافين وجنود ملاحين جيتوليين (Gétules). ولقد امتلك يوبا الثاني بدون شك أسطولاً بحريًا أرسل بعض سفنه بعد تجهيزها لاكتشاف جزر الكاناري كمل روى بلينيوس ذلك.[٧٦]

ولكن ؛ إذا كان المغاربة القدامى يخشون البحر حقًا ، "ولم يكونوا أول الأمر مهرة في ثقافته وركوبه" فكيف عبر الملك بوغود ومن بمعيته المضيق مرتين لمؤازرة أنطوان في صراعه مع أغسطس سنة ٣٨ ق.م. وكيف التحق بأنطوان بحرًا في شرق المتوسط قبل أن يؤسر في ميطون (Méthone) بالبلوبونيز ويقتل بأمر من أغريبا(Agrippa) سنة ٣١ ق.م.؟ وكيف كان ينوي الملك الموريطاني عبور المضيق لتخريب معبد قادس في أكبر ميناء أطلنطكي روماني في إيبريا ، وبأي أسطول ؟ ولماذا كانت بعض المدن الإيبيرية تغدق ألقاب الشرف والتكريمات على بعض الملوك الموريطانيين ؛ أليس لانقاء شرهم ؟ وهذا يعني فيما يعنيه قدرة هؤلاء الملوك على العبور متى شاءوا ، وبالتالي توفرهم على أسطول يمكنهم من ذلك.

وحسب توفنو[٧٧] (R. Thouvenot) ، فإن بوغود كان متعودا على عبور البوغاز ، بحيث سبق له أنقطعه لنصرة كاسيوس (Cassius) ، ثم بعد ذلك لمؤازرة قيصر. ويدعم نص سطرابون[٧٨] هذا الطرح عندما يحدثنا عن طلب البحار والمغامر أودوكس السيزيكي Eudoxe (de Cyzique) من الملك الموريطاني تزويده في القرن الأول ق.م. بسفن قصد تنظيم رحلة على امتداد شواطئ المغرب الأطلنطية ، الشيء الذي يعني ضمنيا أن بوغود كان يمتلك بحرية. ونفس الملاحظة يمكن إبداؤها بخصوص اكتشاف يوبا الثاني لجزر الخالدات وتوغل أسطوله جنوب المحيط الأطلنطي ، وحديثه عن المد والجزر والتيارات البحرية[٧٩] ... ويبدو ، حسب كركبينو[٨٠] ، أن رعايا الملك الموريطاني في ليكسوس هم الذين أخبروه بوجود الجزر الخالدات التي حط فيها أجدادهم في طريقهم إلى قيرني في مصب وادي الذهب. فقام يوبا الثاني بتمويل حملة لاكتشاف هذا الأرخبيل الذي ، نظرًا لبعده ، اعتبره القدامى مقاما ميثيا للأرواح المختارة (les (Iles Fortunées.

ولا شك أنه جدد بعمله هذا العلاقات التي كانت تربط البونيين سرا بجزر الكناري.

والأمر لا يتعلق ببحرية الملوك فحسب ، بل إن بعض قبائل الريف ونواحيه كـ (les Baquates) و (les Mazices) امتلكت المراكب الكافية لعبور المضيق باستمرار لمهاجمة الشواطئ الإيبرية الغنية طوال العصر الإمبراطوري الروماني ، في عصر نيرون (Nero Claudius Caesar) وأنطونان التقي (Antonius Augustus Pius) وماركَ أوريل (M.Aurelius Antonius) وأوريليان (L.Domitius Aurelianus) ، حيث يطلعنا نص *Vita Saturnini,9* على حرب مورية إسبانية حقيقية *guerre mauro-hispanienne*... ».[٨١]

ولقد عرفت تمودة[٨٢] ما بين القرن الثاني وأواسط القرن الثالث سلسلة من الاضطرابات ارتبطت أحداثها بالمضيق ، وبدأت بغزو سكان الريف الغربي لجنوب إسبانيا في عهد الإمبراطور ماركوس أوريليوس(Marc-Aurèle) ، وانتهت بهجمات البرابر (les Francs) الذين عبروا الراين وغزوا غاليا وإسبانيا ؛ وبعد تخريبهم مدينة طراغونا (Tarragona) الإسبانية سنة ٢٦١ ، عبروا البحر متجهين إلى شمال المغرب حيث تم القضاء عليهم. ولقد أشار كبيطولينوس[٨٣] (Capitolinus) ، وهو أحد مؤلفي سلسلة *Histoire Auguste*- وكان معاصرا لديوقليسيان (Dioclétien) وقسطنطين (Constantin) - إلى هذه الأحداث قائلا : « عاث الموريون (les Maures) فسادا في كل جهات إسبانيا (...) ». كما خلف لنا الشاعر اللاتيني كلبورنيوس[٨٤] (Calpurnius) الذي عاش في القرن الأول وصفا لبعض هجمات الموريين على إسبانيا في قصيدته الرعوية الرابعة قائلاً: «(...) بغيرك يا مليبي (Mélibée)، كنا سنزور أقاصي الأرض ، ومراعي جيريون (Géryon) التي داستها [أقدام] الموريين القساة ، تلك الأماكن التي تجري فيها ، على رمل من ذهب ، المياه الصافية [لنهر] البتيس (Bétis الشاسع ؛ (...)».

و قد لاحظ بيكار وكان (Ch. Picard)[٨٥] ، كما رأينا ، أن نشاط نكور البحري الذي ابتدأ حوالي منتصف القرن الثامن وما فتئ يتقوى بعد ذلك ، يوحي بتعاطي سكان الريف في الماضي لأنشطة ترتبط بالبحر. وقد عاين مونطاني (R.Montagne)[٨٦] قبله مراكب أمازيغ سوس المتقنة الصنع ، وهو إتقان قد يكون في رأيه من بين الأدلة الشاهدة على حياة بحرية مزدهرة محليا في الماضي بين أهالي منطقة سوس. ونفس الشيء بالنسبة لسكان أقصى شمال المغرب الذين وصف الحسن بن محمد الوزان ارتباط حياتهم الاقتصادية والاجتماعية بالبحر ، كسكان القصر الصغير الذي "يكاد يكون جميع سكانه بحارة يؤمنون العبور بين بلاد البربر وأوربا ، (...)" ؛ أو أهل جبل أنجرة الذين "جردوا الأرض من أشجارها ليصنعوا بها سفنا في القصر الذي كانت توجد فيه دار صناعة السفن. وكان من عادتهم أيضا أن يزرعوا الكتان ، وأن يشتغلوا حائكين أو بحريين". كما كان سكان الجبال الواقعة حول بادس لا يعيشون إلا من الخشب الجيد الصالح " لبناء الزوارق والسفن الشراعية الحربية ... يحملونه إلى مختلف الجهات ، (...). وكان سكان بادس يخرجون "تقريبا كل مساء يكون الجو صحوا في زوارق صغيرة للتنزه على عرض البحر والتسلي بالشراب والغناء".[٨٧]

وأمثلة نكور وبادس في الشاطئ المتوسطي ، والقصر الصغير وأنجرة في المضيق ، أو نموذج سفينة الغراب في شواطئ سوس الأطلنطية ، ليست الأمثلة الوحيدة في تاريخ المغرب الوسيط أو الحديث ، بل هناك عشرات الأمثلة التي لا أعتقد أنها تتوقف عند القرن الثامن بالنسبة للساحل المتوسطي. فهذه "الحياة البحرية المزدهرة" في بعض المرافئ المغربية لابد وأن لها تقاليد ترجع إلى ما قبل التاريخ المذكور ، على الأقل إلى العصر الروماني عندما كانت موريطانيا الطنجية والقيصرية على اتصال عن طريق البحر فقط. وهذا يعني أن السفن التي أبحرت من سيغا (Siga) في القيصرية إلى طنجة ، كانت مضطرة للتوقف في مرافئ تتخلل المراحل التي كان البحارة القدامى يقطعونها بين الساحلين القيصري والطنجي ، والتي قدر كركبينو[٨٨] مسافة الواحدة منها ما بين ١٢٥ و١٣٠ كلم في النهار الواحد من الإبحار. فمجموعة من الفرض التي ذكرها أنطونان[٨٩] في مسلكه ما زالت مجهولة ، وهي الفرض التي كانت تتخلل الشاطئ المتوسطي وتسمح للسفن القديمة بالرسو للتزود بما تحتاجه خلال أسفارها ، أو بالاحتماء من الرياح العنيفة التي تهب أحيانا من جبال الريف ؛ ولعلها ساهمت بدورها في هذه "الحياة البحرية المزدهرة" في الماضي ؟

ويعتقد روبيفا[٩٠] (R. Rebuffat) أن كثرة أسماء المواضع الواردة في مسلك أنطونان لا تعني أن الأمر يتعلق فقط بمعالم ، بل إن معظم هذه الأسماء تدل على وجود مرافئ ومآوي تتخلل المجاري التي كان البحارة يقطعونها بين الساحلين القيصري والطنجي ، وخاصة فيما يتعلق بالساحل الريفي المغربي حيث تهب الرياح أحيانا بشدة عند سفوح الجبال المشرفة على البحر. وذكر البكري[٩١] المراسي العديدة المنسوبة إلى نكور: «(...) مرسى ملوية وهرك وكرط ومرسى الدار وأوفتيس من مراسي تمسمان ،(...) ووادي البقر والمزمة ، (...) ومرسى باديس ومرسى بقوية وبالش مرسى صنهاجة وغيرها». وأورد ابن أبي زرع[٩٢] أمر أمير المومنين عبد المومن بإنشاء الأساطيل سنة سبع وخمسين وخمسمئة في طنجة وسبتة وبادس ومراسي الريف.

خاتمة

والواقع ؛ أن هذه الملاحظات لا تعني أني أقول بنقيض من زعم أن المغاربة ليسوا ببحارة وأنهم أداروا ظهرانهم للبحر ، فغاية هذا البحث لا تهدف تفنيد الرأي السابق بقدر ما ترمي إلى طرح جملة من التساؤلات التي لا يمكن للفرد الواحد أن يجيب عنها ، لأنها تشمل ميادين متباينة كعصور ما قبل التاريخ ، وعصر المعادن ، وعلم آثار تحت البحر ، وعلم المسكوكات القديمة ، وتاريخ الملاحة والرحلات البحرية ، وتاريخ الفن والميثولوجيا والأنطروبولوجيا الاجتماعية والثقافية ، وتاريخ الأولياء أصحاب الكرامات (المشاة على البحر ، وما أكثرهم في تاريخ المغرب!)، وعلم الأسماك (l'ichtyologie)...الخ ، وهي حقول المعرفة الأساسية التي لن يحيط بها إلا فريق من الباحثين ، كل في اختصاصه.

الهوامش:

١-الطبعة الرابعة ، مارس ١٩٨٢ ، ص. ١٠ .

٢ - البحر في تاريخ المغرب: أيام ٢٤ -٢٥ - ٢٦ أكتوبر ١٩٩٦ . جامعة الحسن الثاني ، المحمدية. منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالمحمدية ، سلسلة الندوات رقم ٧ . تنسيق رقية بلمقدم. الدار البيضاء ، مطبعة النجاح الجديدة ، ١٩٩٩ .

٣ - الماء في تاريخ المغرب: أيام ١٠ - ١١ - ١٢ دجنبر ١٩٩٦ . جامعة الحسن الثاني ، عين الشق. منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، سلسلة ندوات ومناظرات رقم ١١ . الرباط ، مطبعة المعارف الجديدة ، ١٩٩٩ .

٤-الحسين بولقطيب ،" المغرب والبحر خلال العصر الوسيط" ، فكر ونقد ، مجلة ثقافية فكرية ، العدد ٤٤ ، موقع الجابري: (www.aljabriabed.net)

5- FERHAT (H.) : Le Maroc et la mer, R.J.P.E.M, n°6, 2ème trimestre, 1979, p. 25.

٦- هيرودوت ، الإستقصا ، II ، ٥٠ : « (...) والآلهة التي يقول المصريون أنهم يجهلون أسماءها وصلتنا ، فيما أعتقد ، عن طريق البيلاجيين ، باستثناء بوصيدون الذي تعرف عليه الإغريق عن طريق الليبيين. وهم الشعب الوحيد الذي نجد فيه منذ البداية إلها يحمل هذا الاسم ، فضلا عن أنهم ما زالوا يعبدونه (...)».

7- GSELL (S.), H.A.A.N., VI, p. 152.

8 - GRIMAL (P.), Dictionnaire de la Mythologie grecque et romaine, 7è éd. Paris 1982 : Neptune et Poséidon.

9 - LUCIEN DE SAMOSATE, Dialogues des Dieux marins, Dialogue II ; in : Œuvres complètes. Trad. De Belin de Balhu, T. I, Paris 1896.

10 - Idem, Dialogues V ; VI ; VIII.

11 - CHATELAIN (L.), Le Maroc des Romains, Etude sur les centres antiques de la Maurétanie occidentale, Paris, 1944, pp. 270-271 ; De l'Empire romain aux villes impériales, 6000 ans d'art au Maroc, Musée du Petit Palais, Paris, 1990, pp. 356 ; 359.

12 - CHATELAIN (L.), Le Maroc des Romains, pp. 282-283 ; De l'Empire romain, p. 39 ; CHARLES-PICARD (G.), Musées et sites archéologiques du Maroc, CRAI , 1946, pp.664-665 :

« تمثل الفسيفساء الشاسعة في غرفة الطعام (triclinium) الكائنة في" دار التماثيل النصفية" موكبا لأفروديت. وتظهر سفينة فينوس (Navigium Veneris) في الوسط ، وتقودها كائنات تجسد الحب (les Amours) ، وهي تلعب في الأشرعة والدوقل (عارضة الصاري)، وكذا الشاريطيات (les Charites) وقد تحولت إلى جدافات. ويرافق السفينة وسط الأمواج موكب رمزي مكون من عرائس البحر (les Néréides) وآلهة الموج (les Tritons)، يوحي بالرحيل إلى الجزر السعيدة (...)».

13 - BRUNOT (L.), La mer dans les traditions et les industries indigènes à Rabat et Salé, Paris, 1920, p. 184.

14 - PLINE, H.N., IX, 92-93.

١٥ - أبو حامد الأندلسي الغرناطي ، تحفة الألباب ونخبة الأعجاب ، تحقيق: FERRAND (G.), J.A., CCVII, juillet- septembre 1925, p. 96.

16 - BRUNOT (L.), La mer dans les traditions et les industries indigènes à Rabat et Salé, Paris, 1920, p. II.

17-TARRADELL (M.), Marruecos púnico, Tetuàn 1960, p.112, fig.31 ; FANTAR (M.), Le dieu de la mer chez les Phéniciens et les Puniques, Rome 1977 ; Id. La religion phénicienne et punique de Lixus : témoignages de l'archéologie et de l'épigraphie, in : LIXUS, Actes du colloque organisé par l'Institut des sciences de l'archéologie et du patrimoine de Rabat avec le concours de l'Ecole française de Rome, Larache, 8-11 novembre 1989, Paris-Rome 1992, pp.115-121.

١٨ - ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، الجزء الثالث ، ص. ١٧٨ .

١٩ - اليوسي ، المحاضرات في الأدب واللغة ، تحقيق وشرح محمد حجي وأحمد الشرقاوي إقبال ، الجزء الأول ، ، بيروت ١٩٨٢ ، ص ص ٢٠٩. - ٢١٠ : ثلاثة ليس لها أمان.. البحر والسلطان والزمان.

٢٠- اليوسي ، المحاضرات ، ج ٢ ، ص. ٦٤٠ : "مصاحبة الأشرار ركوب البحر" ؛ وانظر كليلة ودمنة ، صيدا ، المكتبة العصرية ، ٢٠٠٥ ، ص. ١٣ "(...) ولقد كنت أسمع أن فيلسوفا كتب إلى تلميذه يقول: إن مجاورة رجال السوء ، والمصاحبة لهم كراكب البحر ، إن هو سلم من الغرق لم يسلم من المخاوف." ؛ ص.٦٥ :" وقد قيل: إن خصالا ثلاثا لن يستطيعها أحد إلا بمعونة من علو همة وعظيم خطر ، منها: صحبة السلطان ، وتجارة البحر ، ومناجزة العدو".

في أخبار المعمور برا وبحرا. حققه وعلق عليه عبد الكريم الفيلالي ، الرباط

٢١ - الزياني ، الترجمانة الكبرى ١٩٩١ ، ص ص .٩٦ - ٩٧ .

22 - FANTAR (M.) , La religion phénicienne, in : Lixus, Actes du Colloque organisé par l'Institut des sciences de l'archéologie et du patrimoine de Rabat... Larache 1989, Paris-Rome 1992, p. 117.

23 - PONSICH (M.), Une mosaïque du dieu Océan à Lixus, B.A.M., VI, 1966, 323-328.

٢٤-رحلة سكولاكس ، ١١٢ .

٢٥-رحلة حنون ، ٤.

26- MONTAGNE (R.), Les marins indigènes de la zone française du Maroc, Hespéris, III, 1923, p. 175-216.

27 - CARCOPINO (J.), Le Maroc antique, Paris 1943, pp. 92-95.

28 - MARCY (G.), Notes linguistiques autour du périple d'Hannon, Hespéris, XX, 1953, p.40.

29 - DOUTTE (E.), Marrâkech, Paris, Comité du Maroc, 1905, p.237.

-القزويني ، عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات ، قدم له وحققه فاروق سعد ، 30بيروت ١٩٧٣ ، ص ص. ١٩٢ — ١٩٣ .

٣١- مصطفى غطيس ، "عالم البحر في معتقدات سكان المغرب" ، في: المغرب والأندلس ، دراسات في التاريخ والأركيولوجية ، تطوان ٢٠٠٦ ، ص ص. ٢٣ - ٢٦ .

32- BRUNOT (L.), La mer dans les traditions et les industries indigènes à Rabat et Salé, p. 24.

٣٣-القادري ، نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني ، تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق ، ج ٢ ، ص. ١١٩ ؛ وانظر: الجاحظ ، الحيوان ، ج٥ ، ص. ٥٢٧ :«(...) ولذلك طمع بعض الكذابين ممن نكره اسمه ، فذكر أن أهل أيذج مطروا [مرة] أكبر شبابيط في الأرض ، وأسمنها [وأعذبها] وأعظمها ، [وأنهم اشتووا ، وملحوا ، وقرسوا ، وتزود منها مسافرهم].(...)».

٣٤ - القادري ، نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني ، تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق ، ج ٣ ، ص. ٢٣٣ .

35 - Journal Asiatique, oct.- déc. 1925, pp. 325- 326.

٣٦-هيرودوت ، II ، ٥٠.

٣٧-مصطفى غطيس ، "الصيد البحري في المغرب القديم" ، في: المغرب والأندلس ، ٢-نصوص دفينة ودراسات ، تطوان ٢٠٠٨ ، ص ص. ١٣ - ٢٢ .

38- RAMOS (J.) BERNAL (D.) CASTAÑEDA (V.) eds, EL Abrigo y Cueva de Benzu en la Prehistoria de Ceuta. Aproximación al estudio de las sociedades cazadoras — recolectoras y tribales comunitarias en el ambito norteafricano del Estrecho de Gibraltar, Malaga 2003.

39 - MILLAN (A.) y BENEITEZ (B.), Dataciones absolutas por termoluminiscencia de carbonatos procedentes del Abrigo de Benzu, en: RAMOS (J.), BERNAL (D.) y CASTANEDA (V.),(eds) , El Abrigo y Cueva de Benzu ..., pp. 267- 272.

40 - Garum y Salazones en el Circulo del Estrecho, Ediciones Osuna, 2004, pp. 118- 119; 122- 123.

41 - ZABALA (C.), JIMENEZ (D.), HERNANDO (J.- A.) y SORIGUER (M.C.), Malacofauna e ictiofauna de la cueva de Benzu, en: RAMOS (J.), BERNAL(D.) Y CASTAÑEDA (V.) (eds), El Abrigo y Cueva de Benzu...; pp 355- 361.

42 - Garum y Salazones en el Circulo del Estrecho, p. 47.

43 -POSAC (C.), Prehistoria de las Islas Chafarinas, Tamuda, IV, 1956, pp. 245-256.

44 - ONRUBIA PINTADO (J.), Les relations entre les îles Canaries et l'Afrique du nord pendant les temps préhispaniques. Archéologie et ethnohistoire d'une aire marginale, TLAPEMO, 1985, pp. 2-7.

٤٥- سببت هذه الخطورة التي تحدث عنها القدامى في غرق سفن كثيرة ارتادت مياه المضيق ، كما أثبتت ذلك نتائج التنقيبات التي قامت بها البعثة الأثرية الأمريكية في جوف بحر رأس سبارطيل سنتي ٢٠٠٢ و ٢٠٠٣ حيث عثر على حطام للسفن وعشرات المراسي... راجع:

TRAKADAS (A.), Final Report of the Morocco Maritime Survey, 2004.

٤٦- تحدث البكري مرارا عن الريح الشرقية التي "تؤذي" في بحر طنجة : " أو بحر طنجة في عصوفات الصبى (وبحر سبتة يا لئيما) فردد"؛ راجع: المسالك والممالك ، ج ٢ ، ص. ٨١٣. وعن سبتة ، راجع وصف ابن الخطيب لها الوارد في: المقري ، أزهار الرياض في أخبار عياض ، ج ١ ، الرباط ، ١٩٧٨ ، ص. ٣٢: "(...) إلا أنها سبتة فاغرة الأفواه للجنوب ، للغيث المصبوب ، عرضة للرياح ذات الهبوب ، (...)".

47- SOUVILLE (G.), Réflexions sur les relations entre l'Afrique et la Péninsule Ibérique aux temps préhistoriques et protohistoriques, homenaje al profesor M. Almagro Bash, t.1, Madrid 1983, pp. 407-415 ; CAMPS (G.), Les relations entre l'Europe et l'Afrique du Nord pendant le Néolitique et le Chalcolitique, in : Navigation et migrations en Méditerranée. De la Préhistoire à nos jours. Collioures 1983 — Sète 1958, Paris 1990, pp. 137-163.

48- SOUVILLE (G.), La civilisation du vase campaniforme au Maroc, L'Anthropologie, t. 81, 1977, pp.561-577 ; Id., Les hommes du Chalcolitique et du Bronze ont traversé le détroit de Gibraltar, in : Actas I Congreso Internacional El Estrecho de Gibraltar, t.1, Madrid 1988, pp. 285-292.

49- PONSICH (M.), Contribution à l'Atlas archéologique du Maroc : Région de Tanger, B.A.M., V, 1964, p. 262.

50 - BERTHELOT (A.), L'Afrique Saharienne et Soudanaise, ce qu'en ont connu les Anciens, Paris, 1927, p.133.

51 - SOUVILLE (G.), Réflexions sur les relations entre l'Afrique et la péninsule Ibérique aux temps préhistoriques et protohistoriques, Homenaje al profesor Martin Almagro Bash, t.1, Madrid 1983, p.411.

52— BERNARD (A.), Afrique septentrionale et occidentale, t. XI, 1ère partie, in : Géographie Universelle de Vidal de la Blache, Paris 1973, p.123.

53- BERNARD (A.), Les capitales de la Berbérie, Alger 1905, p. 121.

54- CELERIER (J.), La géographie de l'histoire du Maroc, MEMORIAL H. BASSET, Paris 1928, p.165.

55 - LAOUST (E.), Pêcheurs berbères du Sous, Hespéris, III, 1923, p. 237.

56 - BRUNOT (L.), La mer dans les traditions et les industries indigènes à Rabat et Salé, Paris, 1920, p. I : « Les musulmans, peu portés naturellement vers la mer et la navigation, (...) » ; p. 1 : « ... le tempérament des Berbères et des Arabes qui les porte peu vers la mer... » ; p. 45 : « D'autre part, les indigènes, mauvais navigateurs, ignorent l'astronomie, c'est à peine s'ils connaissent quelques étoiles dont ils n'ont pas, d'ailleurs, observé les mouvements. »

وأنظر أيضًا ص ص.. ٢٤١-٢٤٥ .

٥٧- كلام برونو بخصوص "جهل" أهالي المغرب بعلم الفلك يتعارض مع ما ذكره البكري في حديثه عن برغواطة الذين صاروا: "أعلم الناس بالنجوم وأحدقهم بالقضاء بها" ؛ انظر: المسالك والممالك ، ج ٢ ص ٨٢٥ ؛ كما يتعارض مع ما ورد في كتاب الحسن بن محمد الوزان الفاسي ، وصف إفريقيا ، ج ٢ ، ص ص. ٧٩-٨٠: "... تلك هي القواعد الفلكية التي يعتبرها الأفارقة ، سواء في كراء أراضيهم وزرعها وحصدها ، أو في ركوب البحر ومعرفة مواقع النجوم في منازل أفلاكها وحساب حركة الكواكب السيارة. ويعلمون الأولاد في المدارس أشياء نافعة جدا مما يتعلق بهذه المسائل. وهناك عدد وافر من الفلاحين العرب وغيرهم في غاية الأمية يحسنون الكلام بإسهاب في الفلك ، ويستنتجون من أقوالهم استنتاجات متناهية في الدقة."

58 - DES POIS (J.), Le destin de l'Afrique du Nord, remarques géographiques, B.E.P.M, n°206, 1er trimestre, 1949, p. 34.

٥٩ - المغرب والبحر خلال العصر الوسيط" ، فكر ونقد ، مجلة ثقافية فكرية ، العدد ٤٤.

٦٠ - البحر المتوسط ، ص٣١.

61 -FERHAT (H.), Le Maroc et la mer, R.J.P.E.M, n°6, 2ème trimestre, 1979, p. 26.

٦٢- تقي الدين عارف الدوري ، صقلية: علاقتها بدول البحر المتوسط الإسلامية ، بغداد ١٩٨٠ ، ص. ١٦٨ .

٦٣- تاريخ ابن خلدون ، المجلد الأول ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٩٩٢ ، ص ص. ٥٨ و ٢٦٥ .

٦٤- تاريخ ابن خلدون ، المجلد الأول ، ص ص. ؛. 266 ، ٢٧٠ .

٦٥ - عز الدين عمر أحمد موسى ، "الأسطول المغربي على عهد المرابطين والموحدين والمرينيين" ، في: دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي ، الطبعة الأولى ، بيروت ، القاهرة ، دار الشروق ، ١٩٨٣ ، ص. ٥١ .

66 - EL MOUJAHID (El Houssine), Histoire et lexicographie : le vocabulaire maritime d'origine berbère, in : Le Maroc et l'Atlantique, Pub. De la Faculté des Lettres et Sciences Humaines de Rabat, Rabat 1992, pp. 51-58.

67- CASTRIES (H. de), Le Maroc d'autrefois. Les corsaires de Salé, Revue des deux Mondes, XIII, fév. 1903, p.835.

ولقد لخص ROSENBERGER هذه الأوصاف في دراسته سنة ١٩٦٧ حيث ورد أ ن " المغاربة ، حسب ما يقال ، ليسوا ببحارة ،فهم يخشون البحر ويديرون له أظهرهم والنشاط البحري كان في الغالب ميدان الأجانب..." ؛ انظر:

ROSENBERGER (B.), Note sur Kouz, un ancien port à l'embouchure de l'oued Tensift, Hespéris-Tamuda, VII, 1967, p.23.

68- EL GHARBAOUI (A.), La terre et l'homme dans la Péninsule Tingitane, Rabat 1981, p.116, n. 109.

69- محمد المهناوي ، المغاربة والبحر خلال القرن السادس عشر ، البحر في تاريخ المغرب ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالمحمدية ، سلسلة الندوات ، رقم ٧؛ ٢٤ و٢٥و ٢٦ أكتوبر ١٩٩٦ ، الدار البيضاء ، ١٩٩٩ ، ص ص ١٩ - ٢٠.

70- المرجع نفسه ، ص . ٣٠ .

71 - BOUCHAREB (A.) , Les Marocains et la mer pendant le XVI è S. in : Le Maroc et l'Atlantique, Pub. de la Faculté des Lettres et des Sciences Humaines, Rabat, Série Colloques et Séminaires, n° 21, 1992, pp. 85- 94 ;

وعن قلة استهلاك السمك في النظام الغذائي المغربي ، أنظر: غزيل ، المجلد الخامس من تاريخه ، ص.٢١٢ " إلى غاية بداية القرن العشرين ، لم يكن السمك طبقا مفضلا لدى أهالي المغرب ..." ؛ والمجلد السادس ، ص.٩ " ... بصفة عامة ، لا يستطيب البربر السمك إلا قليلاً ، وكانت مصانع تمليح السمك الفينيقية تنتج قصد التصدير" ؛ وأنظر:

CARCOPINO (J), Le Maroc antique, Paris 1943, p. 41 : « ... l'indifférence des indigènes pour le poisson, (...) » ; CAMPS (G), Pour une lecture naïve d'Hérodote ; les récits libyens (IV, 168-199), LAPEMO, 1984,p.9 :

" ... كانت تغذية الليبيين الرحل تقوم أساسا على اللحم واللبن (لبن الماعز)".

72 - PICARD (Ch.), L'Océan Atlantique musulman. De la conquête arabe à l'époque almohade, Paris 1997, pp. 136-137 :«... ces indications parcellaires, jointes aux observations concernant Nakur, font apparaître une solide tradition maritime berbère, dans la zone même du détroit et du Rif».

73 - GSELL (St.) H.A.A.N., V, pp. 151-152.

74 - Id., Ibid.

75 - Id., Ibid.

76 - PLINE, H.N., VI, 203-205.

77- THOUVENOT (R.), Essai sur la province romaine de Bétique, Paris 1940, p.151.

78 - STRABON, II, 3,4.

79- PLINE, H. N., VI, 203-205 :

«هذه نتائج أبحاث يوبا بخصوص الجزائر السعيدة. فهو يضعها أيضا في الجنوب ، بالقرب من المغرب ، على بعد ٦٢٥٠٠٠ خطوة من الجزر الأرجوانية (...). أولى هذه الجزر تسمى أومبريوس (Ombrios) ، وهي خالية من آثار البناء ، وفيها جبال وغدير وأشجار شبيهة بالقنة (férule) . وفي جزيرة أخرى تسمى جنونيا (Junonia) لا نرى إلا هيكلا صغيرا مبنيا بالحجارة (...) ثم تأتي بعدها كبراريا (Capraria) المملوءة بالعظايا. وتوجد على مراى من هذه الجزر نيفاريا (Nivaria) التي سميت كذلك نظرا للثلوج الدائمة التي تكسوها ، وهي جزيرة يغطيها الضباب. وأقرب جزيرة لنيفاريا هي كناريا (Canaria) التي اشتق اسمها من نوع من الكلاب الضخمة التي تعيش على هذه الجزيرة بكثرة (...). ونلاحظ فيها آثار مباني (...). كل هذه الجزر غنية بالأشجار المثمرة وطيور من شتى الأنواع (...). وهواء كل هذه الجزر متعفن نتيجة تفسخ جثث الحيوانات التي يرمي بها البحر على شواطئها باستمرار».

80- CARCOPINO (J), Le Maroc antique, pp. 33-34 ; 172.

81 - THOUVENOT (R.), Les incursions des Maures en Bétique sous le règne de Marc – Aurèle, R.E.A., XLI, 1939, pp. 20-28.

٨٢– مصطفى غطيس ، تمودة ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان ، العدد ١ ، ١٩٩١ ، ص ص. ٥٨ - ٦٠ .

83- CAPITOLINUS (J.), Histoire Auguste, t.3, XXI, Paris 1844.

٨٤ - CALPURNIUS (T.-J.), Les Bucoliques, p.77, in : Poetæ minores, Paris 1842.

85- PICARD (Ch.), L'Océan Atlantique musulman, pp. 136-137: «... ces indications parcellaires, jointes aux observations concernant Nakur, font apparaître une solide tradition maritime berbère, dans la zone même du détroit et du Rif».

86 - MONTAGNE (R.), Les marins indigènes de la zone française du Maroc, Hespéris, III, 1923, p.203.

٨٧ -الحسن بن محمد الوزان الفاسي ، وصف إفريقيا ، الجزء الأول ، ص ص. ٣١٦-٣٢٦.

88 - CARCOPINO (J.), Le Maroc antique, p.104, n. 5 ; p.121.

89- Itinéraire d'Antonin , 1-2 ; M. COLTELLONI-TRANOY, Le Royaume de Maurétanie sous Juba II et Ptolémée (25 av. J.-C. – 40 ap. J.-C.), Paris 1997, pp.76-77 :

« يثبت مسلك أنطونان وجود طريق بحرية بين بلدان شمال إفريقيا ، ولا يشير إلى طريق برية تربط بينها ؛ وهو ما اتخذه البعض دليلا على أن الملاحة الساحلية كانت هي السبيل الوحيد للاتصال بين بلدان إفريقيا الشمالية».

90- REBUFFAT (R.), Au-delà des camps romains d'Afrique mineure : renseignement, contrôle, pénétration, ANRW, II, 10.2, 1982, p.506.

٩١-البكري ، المسالك والممالك ، الجزء٢ ، ص. ٧٦٣ .

٩٢-ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ص ص. ٢٠٠ - ٢٠١ .

من أبحاث د.مصطفى غطيس:

باللغة الفرنسية والإسبانية

- TACITE, Index thématique de la dépendance, Paris, Les Belles Lettres, 1993.
- La représentation de l'Ibérie et des populations ibériques dans la Géographie de Strabon, in : Actas del I Seminario Hispano-Marroqui de especializacion en arqueologia, Cadiz 2006, pp. 219-227.
- Histoire des fouilles à Tamuda, in : En la orilla africana del Circulo del Estrecho. Historiografia y proyectos actuales. Actas del II Seminario Hispano-Marroqui de especializacion en Arqueologia, Cadiz 2008, pp. 459-471.
- La torre noroeste del castellum de Tamuda (Tetuan, Marruecos): ultimos avances sobre su proceso de construccion y evolucion historica, in : En la orilla africana del Circulo del Estrecho. Historiografia y proyectos actuales. Actas del II Seminario Hispano-Marroqui de especializacion en Arqueologia, Cadiz 2008, pp. 473- 535 ; Juan Campos, Victoriano Cortijo, Salvador Delgado, Jessica O'Kelly, Javier Verdugo, Nuria de la O Vidal, Mustapha Ghottes y Baraka Raissouni.
- Reconsiderando la datacion del castellum de Tamuda. Actuacion Arqueologica de apoyo a la restauracion en la puerta occidental (2008), in : En la orilla africana del Circulo del Estrecho. Historiografia y proyectos actuales. Actas del II Seminario Hispano-Marroqui de especializacion en Arqueologia, Cadiz 2008, pp. 537-607 ; Dario Bernal, Macarena Bustamante, Antonio M. Saez, José Juan Diaz Rodriguez, José Lagostena, Baraka Raissouni, Mustapha Ghottes y Javier Verdugo.
- Le Fleuve Tamuda, Actas del Encuentro sobre Pelayo Quintero, Cadiz, noviembre 2008 ; (sous presse).